العرب
الأحد 2021/09/26
السنة 44 العدد 12191

حتى روما ليست مدينة حقيقية إذا كتبناها

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

يعتبر الفضاء السردي مكانا يمكن أن يتمّ فيه نشاط أو يطرأ حدث أو تتفجّر حادثة، وقد يكون مفتوحا على أماكن عديدة أو محدودا في مكان واحد، والبعد الدرامي الذي يساهم في بناء الزمن، يساهم أيضا في بناء الفضاء. ولذلك قيل إن بنية الفضاء تُدرك عن طريق السرد، وتعاقب منظَم لصوَر شاعرية، أي أن السردية هي التي تصنع الفضاء، وتبيّنه وتشيّده.

إن الفضاء في الرواية ليس مجرّد مكان تسكنه الشخصيات فتغادره وتؤوب إليه صبحا وعشيّة، بل هو تجسيد للكيفية التي ينظر بها الكاتب وشخصياته إلى العالم، ولذلك يختلف الوسط التخييلي عن الوسط الواقعي، وإن ظل يعقد معه علاقات متعددة.

الشارع الذي يصفه الكاتب هو غير الشارع الذي نمشي عليه لأنه يورد تفاصيل معيّنة ويسكت عن أخرى

فالفضاء الروائي يحمل معاني تحيل على واقع آخر ينبغي ترميزه، فهو فضاء وظيفي يقوم على العلاقة الوطيدة والحميمة التي يقيمها مع الإنسان، وتعبير مادي عن الفكر، وما يصفه نجيب محفوظ في رواياته الواقعية مثلا ليس مجرد شوارع وأزقّة، وحارات وميادين، ومبان سكنيّة ومكاتب إداريّة، وغرف وأثاث، بل هو مناخ كامل يضج بالأحزان والمسرّات، بالآلام والأحلام، بالحرمان والملذات، بالمطامح والخيبات، ويعكس انتصارات أبطاله وانكساراتهم، أي أنّ الفضاء يخلق نوعا من التناغم والانسجام بين الأماكن والشخصيات، فالوسط يعبّر عن طبائع البشر، ويكشف عن الكائنات والأشياء التي يخفيها.

وقد يعبرّ الفضاء عن فلسفة في الحياة، فأبطال سارتر مثلا يبدون في معظمهم داخل فضاء مغلق، غرفة بسيطة ينحبسون فيها ولا يريدون مغادرتها، أو قلّ أنْ يغادروها، فهي بالنسبة إليهم غرفة مغلقة، وفي ذلك تأكيد على ما ينتاب إنسان تلك المرحلة من شعور بالضيق والاختناق، في عالم متحوّل، خارج من حرب مدمّرة، وتائق إلى مستقبل لم تتضح بعد آفاقه. حتّى وصفه للموجودات زهيد، وكأن علاقته بها معدومة أو تكاد، فهي، على قلتها، تشغل مكانا وضعت فيه، ولا تعلم أيّ دور سوف تُدعى إليه.

ولئن كان بعض الكتاب حريصين على زيارة مسرح أحداث رواياتهم قبل تحريرها، حتى يكونوا أكثر دقة ووفاء في نقلهم للتفاصيل، كما كان يفعل أمبرتو إيكو، فإن كتّابا آخرين يعتمدون على ذاكرتهم في وصف الأمكنة، والغاية دائما جعل العمل الروائي قريبا من الواقع، وجعل أبطالهم شبيهين بمن نصادفهم في حياتنا اليومية، فيلفتون انتباه قرائهم إلى ملامح وخصائص لم ينتبهوا إليها. فقد نمر كل يوم بمكان في حيّنا لا تثير فينا بيوته وأبوابه ونوافذه أي شيء، بحكم العادة، ولا ننتبه إلى جزئية، كنقش في باب عتيق أو لوحة خزفية متآكلة على جدار، إلا حين يثبّتها الروائي في وصف يعيد إليها الحياة، ويربطها بواقعة أو حادثة أو حكاية طريفة.

غير أن تجربة القارئ قد يكون لها دور حاسم إذا ما بالغ الكاتب في تقديم عناصر توبوغرافية حقيقية تطغى على عناصر أخرى متخيلة، لأن تلقي الرواية عندئذ سيختلف من قارئ إلى آخر، ويتباين الموقف بين من يعرف المكان الموصوف ومن لا يعرفه.

وقد يحاسب القارئ الكاتبَ كما اعترف أمبرتو إيكو نفسه، وهو الذي كان حريصا على تسجيل كل شيء في مسرح أحداث روايته، حيث راسله أحد قرائه ليصوّب له خطأ وقع فيه، ويذكّره بأن حريقا نشب في الليلة والساعة اللتين يوردهما دون أن يجد صداه في روايته.

تلك الطرفة دفعت إيكو إلى التفكير في العلاقات القائمة في ذهن القارئ بين الواقع والخيال، غير أن كتابا ونقادا آخرين يعتقدون أن الشارع الذي يصفه الكاتب هو غير الشارع الذي نمشي عليه، لأن الكاتب يورد تفاصيل معيّنة ويسكت عن تفاصيل أخرى، ما يجعل الصورة التي نحملها عن ذلك الشارع كلها مغايرة، لأن الكاتب يستعيض عنها برؤية مخصوصة غير رؤية من اعتاد المرور بذلك الشارع، ما يعني أن عالم التخييل لا يتماهى تماما مع عالمنا الخاص برغم وجود نقاط تشابه كثيرة، ولكنها دون علاقة برجحان السردية وإمكانية حدوثها أو وجود عناصرها وجودا ماديّا ملموسا.

ثمّ إنّ المكان يمثّل خصوصيّات هجينة يمتزج بعضها ببعض، فروما مثلا ليست مجرد مدينة حقيقية، وإنما هي أيضا مدينة جُعلت حتّى لمن لم يزرها، ومن ثَمّ فهي تشغل أخيلة تتمازج كي تبني تصوّرا متعدد العناصر.

في الرواية التقليدية، يقع عرض الزمن والفضاء مقدَّما، لتحل فيهما الشخصية التي تصنع الحدث، ولكن إمكان تحرّكها وتدخّلها وتجلّيها يظل رهين الزمن والفضاء اللذين توضع فيهما، حيث يعمل طابعها القارّ بنوع من الحتمية، له علاقة بالحبكة والنظام السببي للأحداث.

أما الرواية الحديثة فقد جعلت الفضاء غائما، حيث يتم وصفه عن طريق وعي ما، ما يجعل الموجودات تُدرَك بكيفية تختلف باختلاف الذات التي تصفها، إذ لم يعد ثمة شيء ثابت في العالم الروائي لكاتب يمارس "الواقعية الذاتية" بعبارة أحدهم، أو تقنية زاوية النظر، أو تعدد الاحتمالات، إذ باتت الموجودات لا تجد قوامها إلا بفضل الذات التي تعضدها، فالكتاب المحدثون يعتقدون أن التصورات التقليدية للزمن والفضاء عفا عليها الزمن، لأن آفاق الإنسان تسير نحو الاتّساع فلا مجال عندئذ لإيلاء العقل ثقة مطلقة، أو الاعتقاد بأن الذكاء يمكن أن يحل كل مشكلات الحياة، والأمر متروك إذن لمقاربات مستجدّة، يتسابق كل واحد في ابتكارها، دون الحرص على تأمين الأفق السردي.

لا جدال أنّ للأفق السردي دورا هامًا في تنظيم الفضاء داخل الرواية، فهو يحدّد عناصر روائية أخرى، وخاصة الزمن والشخصية، وقد اعتاد النقاد التأكيد على انسجام كل تلك العناصر في الرواية الناجحة، فهي تدخل في البنية الروائية وتحوّرها، لكونها محوَّرة هي ذاتها. والمكان الأدبي هو اتصال بين ثلاثة أعمال: تعيين الموضع، تحديده، وإضفاء خصوصية عليه، وذلك يتمّ بفضل وصف لا يكون حصريّا، أو نظرةِ الشخصية خلال تجوالها.

ولئن كانت التصورات الفضائية في الروايات الحديثة تختلف من كاتب إلى آخر، فإن الفضاء في الرواية ليس عنصرا معزولا تماما عن بقية العناصر، بل إن له معها علاقات على مستويين: مستوى يكون فيه الفضاء دالّا يساهم في إنتاج الرواية، ومستوى عاديّا يلفت الانتباه إلى الكيفية التي بُني بها الفضاء والدّور الذي يؤديه داخل السرد. والمظهران لا يتناقضان عموما، بالرغم من أن أحدهما قد يغطّي على الآخر لدى بعض الكتاب كما هي الحال في روايات آلان روب غرييي، حيث الفضاء ثابت جامد دون حضور بشري، إذ ثمة جملة من الدلالات بين الأمكنة والشخصيات، وبين الفضاء والموجودات، فضلا عن الانسجام بين الفضاء وكامل الرواية من جهة وحدتها السردية.

الفضاء يعبرّ عن فلسفة في الحياة (لوحة للفنان محمود فهمي عبود)

عصر ما بعد الحقيقة آخذ في التوسع بشكل مخيف

عبدالعالي زواغي
كاتب جزائري

يمارس عصر ما بعد الحقيقة (post-truth) الذي نحياه اليوم ونعاني بحدّة من إرهاصاته، تشويشا مكثفا على عقل الفرد والعقل الجمعي على السواء بفعل التدفق الهائل والمستمر بلا انقطاع للمعلومات والأخبار والصور والفيديوهات التي يصعب فرزها وتمييز المزيفة منها عن الحقيقية، أو الصادقة عن الكاذبة، نظرا للطرق والتقنيات المبتكرة التي تصاغ بها، والآليات والمسالك السريعة التي تتبع في نشرها وتدويرها بشكل يفوق الوصف، لاسيما في مواقع التواصل الاجتماعي التي أضحت بيئة خصبة لتناسل مثل هذه المعلومات والأخبار.

تشير إحدى الدراسات المتخصصة بأن الأخبار الحقيقية تتطلب، في المتوسط، مقدارا من الوقت يناهز ستة أضعاف الوقت الذي تستغرقه الأخبار الزائفة لتصل إلى 1500 شخص، وهو فارق كبير جدا يعطينا لمحة عن سرعة الانتشار المذهلة للأخبار الزائفة، بشكل يوحي بأنها تخضع في ذلك لديناميكية فايروسية سريعة، خصوصا على منصات ومواقع التواصل الاجتماعي التي باتت بيئة خصبة لانتشار الأخبار المزيفة التي تأتي على عدة حوامل، سواء في شكل مناشير أو صور أو فيديوهات.

لكن تبقى الصورة والفيديو بمثابة القوة الضاربة في أيّ عملية تضليل أو نشر إشاعة ما، فالصورة والفيديو يحتلان اليوم الصدارة في عمليات التأثير، ولهما سطوة وسلطة كبيرة جدا على المتلقين، وجاذبية وفتنة تعمل على إعادة تشكيل فهم وإدراك الناس لعديد القضايا التي تواجههم، سواء بالسلب والإيجاب تبعا لأيديولوجية الفاعلين الذين يتحكمون في تقنيات صناعة الصورة وآليات التلاعب بها وأهدافهم.

يخبرنا تاريخ وسائل الاتصال أن صناعة الدعاية أو الإشاعة، كانت دائما تستفيد مما يجايلها من وسائل الاتصال، فقد بدأت شفهية قبل أن يعرف الإنسان الكتابة، وباختراع الطباعة وظهور الصحافة انتقلت إلى مخاطبة الرأي العام والتأثير فيه من خلالها، وهكذا كان الأمر مع بزوغ نجم الراديو الذي عرفت هذه الصناعة أزهى أيامها من خلاله، قبل أن يأتي التلفزيون وتواكبه بكل حماس.

لكن اليوم، ومع الطفرة الحاصلة في التقنية وصناعة المحتوى، فقد تعملقت صناعة الكذب هذه واشتدت قوتها وقدرتها على تدمير الحقائق وصناعتها بشكل يفوق كل تصور، متوسلة بالخوارزميات والذكاء الاصطناعي، كآخر ما جادت به قريحة العقل البشري من تقنيات كانت إلى الأمس القريب لا تخرج عن نطاق الخيال العلمي، إلى الحد الذي بات ممكنا فيه، من خلال تقنية الزيف العميق (Deep Fake)، القيام بصناعة الكذب والزيف من الطراز عالي الجودة، الذي يتطابق مع الحقيقي ولا يمكن الفصل بينهما بسهولة إلا من طرف الخبراء، فقد بات ممكنا بث مقطع فيديو لك وأنت لم تشارك في تصويره أو تحريره، في أماكن ومواقف لم تعشها مطلقا، تتكلم فيها وتتحرك وتقول وتفعل أشياء لم تقم بها، لكن التقنية والبرمجيات الذكية، دمجت صورك وتلاعبت بها وصنعت فيديو مزيفا يبدو فعلا حقيقيا.

لكن هذه التقنية تأخذ منحى خطيرا عندما يتعلق الأمر بالرؤساء ورموز الدول والشخصيات الشهيرة، التي تجد نفسها تصرّح بأقوال وتقوم بحركات "حقيقية" بالنسبة إلى الرأي العام، الذي يتلقاها على منصات التواصل الاجتماعي ويصدقها وينجرف وراءها، أو استخدامها في أعمال إجرامية وابتزاز وتلاعب سياسي، خصوصا إذا تم تسهيل الحصول على هذه التقنية وإتاحتها للاستخدام العام، بما يؤدي إلى التلاعب بالرأي العام ووسائل الإعلام، والتحكم فيه لأغراض تخريبية أو شريرة، بشكل يجعلنا نفقد الثقة في ما نشاهده ونسمعه ونقرأه، أو بتصديق الأخبار الكاذبة التي يتم تصنيعها بشكل لا يمكننا تمييزها عن الحقيقية في ظل انفجار المحتوى المزيف.

وتنتشر الأخبار الزائفة (Fake News) على شبكة الإنترنت، بشكل أسرع وعلى نطاق أوسع من الأخبار الحقيقية، سواء عن طريق المستخدمين أو البوتات (روبوتات الإنترنت)، بحسب دراسة أجراها باحثون من جامعة (MIT) الأميركية، في الفترة الممتدة بين سنتي 2016 و2017، حيث تم من خلالها معالجة 126000 خبر بين زائف وحقيقي، جرى التغريد بها من طرف 3 ملايين شخص على موقع تويتر لأكثر من 4.5 مليون مرة.

يجب التحلي بمبدأ الشك والمقدرة على التحليل والتفكير النقدي أثناء تلقي المعلومات والحقائق المعروضة في البيئة الرقمية

ويزداد اتساع الفجوة في سرعة الانتشار بين الأخبار الزائفة والحقيقية، بشكل كبير حينما يتعلق الأمر بالأخبار السياسية، التي تتفوق في الانتشار عن تلك المتعلقة بقضايا الإرهاب أو الكوارث الطبيعة أو الأخبار العلمية أو المالية مثلا، وهي فجوة بحسب الكثير من الباحثين يصنعها أساسا مستخدمو الإنترنت وليس البرمجيات، إلا أنه في الجهة المقابلة، تلعب الخوارزميات دورا فعالا في وضع أولويات المشاهدة والتصفح وترتيبها، وإرسال رسائل عن طريق البوتات للمستخدمين، تحوي أخبارا كاذبة أو معلومات زائفة، وهذا الميل لنشر الأخبار الكاذبة يمكن أن يأتي انطلاقا من معيار الجدة وقدرتها على مفاجأة القراء بصورة أكبر من الأخبار الحقيقية.

وتبعا لهذا الطوفان الرقمي الأهوج، فقد صرنا مثل ورقة تتقاذفها ريح الزيف والكذب والخداع، فتتلاعب بنا تارة يمينا وتارة أخرى يسارا، واستسلمنا لثقافة استهلاكية جاهزة، أورثتنا سهولة عجيبة على الانقياد لأيّ فكرة أو خبر أو معلومة، دون إبداء أيّ مساءلة أو بحث وتدقيق، بعدما استمرأنا الكسل العقلي على حساب إعمال العقل وتوظيف ملكاته النقدية والتحليلية في البحث عن الحقيقة واستخلاصها، وهي العملية التي تعتبر للكثيرين مجهدة وليست بالمغرية أمام سطوة الجاهز والفوري والمؤثر.

إن عصر ما بعد الحقيقة آخذ في التوسع والتمدد بشكل مخيف جدا، بفعل الطفرة التي تعرفها التقنيات والخوارزميات ذات الذكاء الاصطناعي الرهيب، القادر على الزج بنا في واقع كله اصطناع وزيف، والتلاعب بنا وتضليلنا وسوقنا كقطيع منظم، ما لم نفتح أعيننا وعقولنا، ونرسي أسس تربية إعلامية ويقظة تقنية، تمكننا على الأقل، من التقليل من حجم الخداع الذي نتعرض له، وتلافي بعض المضاعفات الاستراتيجية للمعلومات والأخبار المزيفة، التي تنهال علينا من كل حدب وصوب كالسهام المسمومة، لتدمي المجتمعات والشعوب التي لا تحلل ولا تناقش، فتتحكم فيها وتوجهها كيفما تشاء، وتسوق الأمم غير العقلانية ولا العملانية إلى حتوفها بلا أي مقاومة.

الحقيقة وجدت لنبحث عنها لا أن نتلقاها من فاعلين لا نعرفهم، لذلك فإن التحلي بمبدأ الشك والمقدرة على التحليل والتفكير النقدي أثناء تلقي المعلومات والحقائق المعروضة في البيئة الرقمية، وعدم تصديق ما يعرض إلا بعد غربلته ومقارنته بمصادر أخرى مع التحلي ببعض المعرفة التقنية، بات أكثر من ضرورة في عصر ما بعد الحقيقة الذي تجذر في هذه البيئة بشكل لا يوصف، حيث بات الاصطناع بتعبير جان بودريار يحجب الواقع، ويستمد قوته من تخريب النظرة السوية للواقع، فيتم التلاعب بوعي المتلقي وإقناعه عبر قوة الميديا والتقنية برؤية الطرف المتحكم في الآلة المعلوماتية، والذي بالضرورة لن يكون رحيما بالمستخدمين ولا بالدول.

ص13 وص 14 ومقال عبدالعالي زواغي في ص10 تنشر كلها كاملة على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

صناعة الكذب تستغل الذكاء الاصطناعي